سِمات
S e m a t

بصدد "سيميائيات التظهير" للناقد عبد اللطيف محفوظ

نحو وعي قرائي جديد لقراءة النص

عبد الله بريمي

جامعة مولاي إسماعيل – مكناس – المغرب

berrimi_abdellah@yahoo.fr

Received: 28 May 2014,
Revised: 14 June 2014, Accepted: 23 July 2014
Published online: 1 Sept. 2014

Semat
ISSN 2210-173H
Semat, 2, No. 3, (Sept. 2014)

بصدد "سيميائيات التظهير"
للناقد عبد اللطيف محفوظ[1]
نحو وعي قرائي جديد لقراءة النص

عبد الله بريمي
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس – المغرب

الملخّص

إن السميائيات التأويلية- من خلال مفاهيمها وآليات اشتغالها حسب الناقد عبد اللطيف محفوظ – قادرة على الإمساك بكل الممكنات الأصلية والمنتجة للنص (المسير التوليدي) وقادرة كذلك على خلق سياقات تساهم في تحيين وترهين الفعل التأويلي وتقوم بضبط حدود السنن الذي تنتهي عنده كل التسنينات أو التأويلات الممكنة (المسير التأويلي). وتطمح إلى تهذيب القراءة النقدية ومحاولة إبعادها عن كل حكم قيمي انطباعي يكتفي في أحسن الحالات بالوقوف عند حدود النص في أبعاده الخطية بعيدا عن غاياته الدلالية والجمالية، مما يجعل فعل القراءة فعلا حرا وعفويا تبنيه حدوس وتخمينات تغيب كل الأسس الفلسفية التي تخص بناء المعنى وشروط تداوله وتلقيه.

الكلمات المفتاحية: السيميائيات، التوليد، التأويل، التدلال، المدار، السنن ، الانسجام، استدلال، سرد.

Abdeulatif Mahafud's Semiotics of Manifestation:

Toward a New Awareness for Interpreting the Text

Abdellah Berrimi
Moulay Ismail University Meknes
FP Errachidia Morocco

Abstract

According to Abdellatif Mahfoud, Interpretive Semiotics through its concepts and functioning of mechanisms, is able to size all original possibilities producing the text (generative parcours) and is also able to create contexts that contribute to updating and actualizing the interpretive act and it adjusts the codes boundaries that end at every possible codification or interpretation (interpretative parcours). It aspires to refine critical reading and attempts to keep it away from any value or impressionistic judgment which in the best cases stand at the borders of the text in its immediate dimensions away from the semantic and aesthetic goals: things that make the act of reading free and spontaneous constructed by intuitions and speculation that disregard all the philosophical foundations concerned with meaning building and conditions of using and receiving.

Abdellatif Mahfoud's conception of Interpretive Semiotics gives the reader an essential role in the process of producing meaning. The text creates a Model Reader capable of actualising the various meaning-contents in order to decode the possible worlds of the narrative. This reader fills in the many gaps in the text, which is never completely explicit, using anything from simple linguistic inference to a more complex deductive reasoning that applies to the entire narrative.

Keywords: Semiotc, interpretation, semiosis, code, coherence, inference, narration.

بصدد "سيميائيات التظهير"
للناقد عبد اللطيف محفوظ[1]
نحو وعي قرائي جديد لقراءة النص

عبد الله بريمي
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس - المغرب

تقديم:

اعتمدت في مقاربتي لكتاب الناقد الدكتور عبداللطيف محفوظ «سيميائيات التظهير»، (٢٠١٠)؛ على استراتيجيه قرائية انتقائية ساءلت مواضع من تجربته ومشروعه النقدي، وتجاوزت أخرى يقتضيها نسق هذه الاستراتيجية، وهي مقاربة لا تغطي العمل في كليته، ولا تدعي الإحاطة الشاملة بمحتويات فصوله، وإنما هي مقاربة توسلت فيها بأفقين قرائيين:

- أفق خارجي يرجع الكتاب إلى المنطلقات الفلسفية والعلمية التي استقى منها مادته المعرفية، ثم رصد الطريقة التي يشتغل بها مفهوم التظهير من خلال مركزية المؤولات ومفهوم التدلال كما تم التنظير له من قبل الفيلسوف والسيميائي الأمريكي شار ساندرس بورس؛
- وأفق داخلي نحاول من خلاله استقصاء منهجية الكتاب - والمشروع النقدي للدكتور عبد اللطيف محفوظ عموما- في تأصيل الفعل النقدي العربي وتجديده من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى وإشكالاته، وأشكال تصريفه وتداوله.(الإنتاج والتلقي).

المنطلقات المعرفية:

أشار الناقد عبد اللطيف محفوظ إلى أن هذا الكتاب يمثل الحلقة الثالثة والأخيرة من المشروع النظري لوصف الإمكانات الأكثر ورودا لإنتاج وتلقي النص الروائي، والذي كان منطلقه النظري المحض كتاب "آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سميائي"[2](...) ثم "كتاب المعنى وفرضيات الإنتاج"[3] إلاّ أن هذا الكتاب، رغم كونه حلقة ثالثة في سياق متدرج، يمتاز، حسب قول الكاتب، بكونه قد خُصّص للمستويات الأكثر أهمية، لأنها تتصل ببنيات التظهير، والآليات المنطقية المتحكمة فيه. كما جاء لاستكمال وتدقيق وصف مجمل آليات التظهير المركب والعصي انطلاقا من تفعيل نظرية المؤولات البورسية[4].

تجد سيميائيات التظهير، كما يشغل مفاهيمها الكاتب عبد اللطيف محفوظ، أصولا لها في سيميائيات الأمريكي شارل ساندرس بورس ذات المنحى الظاهراتي والمنطقي، وسيميائيات ألجيردان جوليان غريماص السردية ذات المنحى اللساني والمنطقي، وسيميائيات أمبرطو إيكو، ويوري لوتمان وأوسبنسكي ذات المرجعية الثقافية؛ وقد دعم الباحث ذلك بمجموعة من المقترحات النظرية والعملية، ورهانه في ذلك محاولة

١- عبد اللطيف محفوظ: سيميائيات التظهير الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر ٢٠٠٩.

٢- عبداللطيف، محفوظ. آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصور سيميائي، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر ٢٠٠٨.

٣-عبداللطيف، محفوظ. المعنى وفرضيات الإنتاج: مقاربة سيميائية في روايات نجيب محفوظ، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر ٢٠٠٨.

٤-عبداللطيف، محفوظ. سيميائيات التظهير مرجع سابق ص.١٠.

استنبات نموذج نقدي عربي وخلق بلاغة جديدة لمقاربة النص الروائي.

لقد أصّل لمشروعه النقدي باعتماده سلسلة متسقة من المفاهيم هي عبارة عن آليات انسجام كبرى وآليات انسجام صغرى تمكّن من وصف آليات إنتاج وتلقي الدلالة داخل موضوع ثقافي ما مثل «الدليل التفكيري، والمدار السياقي، والمدار النصي، والبنية الإظهارية». ولفهم ما تدلّ عليه هذه السيميائيات، في أبعادها النظرية والعملية، لا بدّ من تحديد المستويات الدلالية التي تحتضنها، حيث لا وجود للمعنى إلا من خلال سيرورة تنقله من حدوده المفهومية المجردة، والمتصلة والمعزولة عن أي سياق، إلى كيانات أو مستويات ملموسة يُستثمَر من خلالها هذا المعنى عبر استحضار كل أشكال التدليل التي تحققه في واقعة ما. إن هذا الانتقال لا يتمّ بصورة اعتباطية، بل بواسطة أشكال توسطية ثقافية ورمزية تربط بين المجرد والمحسوس أو بين النموذج ونسخته، وهي أشكال تحدد العلاقات وصور التبادل الممكنة بين المستويين؛ «فما بين المحافل الأصلية الأولى حيث تتلقى المادة المضمونية أولى تمفصلاتها وتتشكل باعتبارها شكلا دالا وبين المحافل النهائية حيث تتجلى الدلالة من خلال لغات متعددة، يمكن إدراج محفل للتوسط تنتظم داخله بنيات سيميائية تمتلك وضعا مستقلا»[٥] إن هذه البنيات لصيقة بالفعل التأويلي عند بورس، وهو فعل محكوم باستراتيجية وبإرغامات تأويلية تسعى إلى تحديد الطرق التي يتم بها تشكيل المعنى وتنظيمه داخل وقائع مادية قصد تداوله وتصريفه في أفعال وممارسات وسلوكات مخصوصة. كما أن هذه السيميائيات تستثمر معطيات النظرية الغريماصية (غريماص) في تعالق كل مستوياتها؛ وتنطلق هذه النظرية من مسلمة أساسية مفادها أن الذهن البشري قادر على صياغة وخلق موضوعات ثقافية مركبة انطلاقا من عناصر بسيطة، والانتقال من المركب إلى البسيط لا يمكن أن يتم إلا عبر مصفاة تفرض على هذا الذهن انتقاءات هي في الأصل إرغامات يلزمه تخطيها ليحدد موقعه ضمنها. إن هذه السيرورة التوسطية تقودنا من المحايثة إلى التظهير، وهذا الانتقال لا يمكن أن يتم إلا استنادا على ثلاث بنيات أساسية وهي:

١) البنية السميائية السردية في مستوييها:

أ – المستوى المورفولوجي (العميق): الذي يرصد البعد الدلالي والمنطقي.

ب – المستوى التركيبي: الذي يرصد التحويل من النظام المنطقي إلى نظام التركيب السردي.

٢) البنية الخطابية المتبدية في:

– مستوى التركيب الخطابي الذي يجد كافة تحققاته انطلاقا من الصوغ الخطابي للبنية السيميائية السردية.

٣) – ثم هناك بنيات خاصة بالتظهير، وتقوم هذه البنيات بإنتاج وتنظيم الدوال، والأمر يتعلق في هذه الحالة، بالوجه اللساني للقيم.[٦]

وفي ضوء هذه الأصول المؤسسة للمقاربة النظرية والإجرائية، الذي يشتغل خطاب سيميائيات التظهير وفق ميكانيزماتها وضوابطها، تتحدد عناصر الدرس السيميائي عند الناقد عبد اللطيف محفوظ ، وتبرز معاييره وقواعده البانية لانسجام الخطاب وتماسكه.

إن الإمساك بكل المكنات الدلالية داخل سيميائيات التظهير لا يمكن أن يتم إلا من خلال مستويات، وهي مستويات يمكن اختزالها في مظهرين أساسيين حيث يشير كل مظهر إلى تنظيم متفرد وخاص للقيم الدلالية، وذلك بتحديد كل الأنماط المتعلقة بإنتاج هذه القيم وأشكال تصريفها واستهلاكها. وضمن هذين المظهرين يمكننا أن نصنف كل العلامات، وخاصة تلك التي تعود، طبعا، إلى السلوك الإنساني كما

5- Greimas, A.J. Du Sens; ed. Seuil; Paris 1970; Page: 160.

6- Greimas, avec la collaboration de F. Rastier: le jeu des contraintes sémiotique in du sens. P. 136.

تمّ تجسيده في مجموعة من الممارسات الفنية والاجتماعية والثقافية.

ففي الحالة الأولى لا نستطيع الإمساك بهذه القيم لأنها تتحدد من خلال صيغ مجردة تتخذ طابعا لا زمنيا، فهي لا تعيّن مرجعا محددا، بل هي في الأصل أفكار وممكنات يشترط فيها أن تكون مبهمة وغامضة، فهي قيم لا تحيل على أيّ شيء آخر ولا يستلزمها أي شيء سوى ذاتها. إنها سابقة على أي دلالة أو تركيب، فهي قيم متصلة ولا يمكن أن يُفكّر فيها بصورة متمفصلة، ومع المتصل لا نستطيع إنتاج دلالة ما داخل نسيج هذه القيم.

أما في الحالة الثانية، فإن هذه القيم تنتقل من طابعها المبهم إلى المجسَّد والمتحقق في وقائع مخصوصة. فكل سلوك ليس سوى تكثيف لسلسلة من القيم أو السلوكات المتشابهة التي تتكرر في زمن أو مكان ما. يستفاد من هذا الكلام أن الانتقال من المظهر الأول إلى المظهر الثاني ليس انتقالا سكونيا موسوما بالثبات أو هو انتقال يكتفي فقط بتحويل ما هو مكثّف ولا زمني داخل المستوى الأول إلى ما هو متمفصل ومحقق داخل المستوى الثاني، إنه على العكس من ذلك انتقال دينامي يبرر العلاقة القائمة بين المستويين. فالمضمون الأول يتطور ويغتني من خلال التحققات الخاصة؛ فكل تحقق يضيف أو يعدل بهذه الصيغة أو تلك قيما جديدة أو معدلة إلى المضمون الأول. وهذا الانتقال لا يمكن أن يتم إلا عبر المؤولات بكل أصنافها: المؤولات السننية والمؤولات التحيينية التعرفية والمؤولات التجسيدية الإظهارية والمؤولات الحملية والمؤولات القضوية ومستوياتها المباشرة والدينامية والنهائية باعتبار هذه المؤولات سيرورات توسطية تنقلنا من الإمكان إلى الوجود العيني والمجسد.

الإجراء التأويلي في سيميائيات التظهير والمفاهيم البانية له:

١- آليات الانسجام الكبرى:

يسعى فعل القراءة داخل سيميائيات التظهير إلى إبراز كيف تشتغل وتتعاضد مختلف مستويات العلامة (السميوزيس أو التدلال) لتنتج، في النهاية، معنى ما يكون معادلا للتعدد والانفتاح على عوالم دلالية ممكنة؛ هذا الانفتاح لا يعادل اللعب والاستعمال الحر للنص، ولكنه يمثل استراتيجية تأويلية مشروطة بوسائط التعاضد النصي والتأويلي المتمثلة في اختيارات الموسوعة والبناء الثقافي للمؤول (ضرورة وجود تصور مسبق عن المعنى) ثم الفرضيات التداولية (المدار السياقي) المتصلة بمبادرة القارئ والذي يصوغها بطريقة بسيطة على شكل أسئلة يفترضها النص تلميحا أو تلويحا، والعوالم الممكنة بوصفها بناء ثقافيا بانيا لكل توقعات وسيناريوهات هذا القارئ.

إن هذا الإجراء التحليلي الذي اختاره الناقد لمقاربة أعمال نجيب محفوظ الروائية لا يمكن أن يتم إلا استنادا على مجموعة من الآليات وهي آليات انسجام كبرى تتعلق بمستويات إنتاج الخطاب وتأويله (التوليد والتأويل)؛ "فليست ظاهرة انسجام الخطاب وتماسكه مقصورة على مستوى بعينه بل هي متحققة في كل مستويات الإنتاج، فمعالمه تحايث معالم بداية التشكل الذهني للنص. ويعني ذلك أن التفكير في الانسجام، يتزامن مع التفكير في تحويل ناتج الدليل–التفكري إلى مدار نصي. وإذن، فإن التصور الممارسي للنص الاحتمالي يتلازم تزامنيا مع التصور الممارسي لانسجام إظهاره. الشيء الذي يسمح باستنتاج أن الانسجام يظل متلازما مع كل المراحل المحايثة، بل ومتحكما في أشكال تطوراتها..."[٧].

إن هذه الآليات الكبرى تتعلق بمستويات الإدراك؛ والإدراك في منشئه وفي منطلقاته الأصلية هو معرفة مبنية على افتراضات تستند بدورها إلى معرفة سابقة من أجل إنتاج معرفة مضافة، لذا لا يمكن تصور سيرورة تأويلية أو تدلالية معزولة وخارجة عن عمليات الإدراك هاته سواء كان إدراكا «للأنا» أو إدراكا للعالم والمحيط الخارجي الذي تتحرك داخله هذه «الأنا». إن هذا الإدراك لا

٧- عبداللطيف، محفوظ. سيميائيات التظهير. مرجع سابق، ص٢١.

يتم دفعة واحدة، بل هو إدراك يتم بوسائط تنقله من الوجود بالقوة إلى الوجود المحقق والعيني ورهانه في ذلك محاولة إظهار المعنى. ويستند هذا الإدراك في إنتاج دلالاته إلى عجلة التسنين الثقافي والرمزي. لذلك فآليات الانسجام هذه، من حيث الوجود والاشتغال ليست آليات تهتم بتعيين الأشياء والوقوف عند حدودها فحسب، إنها بالإضافة إلى ذلك تهتم بتأويلها، إذ هي في الأول والأخير نمط في بناء التجربة الإنسانية. من هنا نستطيع القول، إن الآليات الإدراكية هي، في الوقت نفسه، آليات اشتغال الحالات التي تقودنا إلى توليد وتأويل العلامات.

إن تماسك واتساق هذه الآليات يدرك في تعاضد مستوياته ليشكل في النهاية سيرورة تدلالية. أول ما تبتدئ به هذه السيرورة هو تأكيد حقيقة التمثيل، بعد ذلك، فإن كل سيرورة استدلالية تالية تقتضي إنتاج متوالية من العلامات أكثر تطورا؛ ذلك أن موضوع العلامة يصبح هو الآخر موضوع بحث مستمر، والحجج والأفكار البانية لهذه السيرورة تسعى في كل خطوة إلى تأمين المرور من تمثيل إلى آخر، من موضوع إلى موضوع آخر لم يُحدّد بعد، ثم تتوقف هذه السيرورة في لحظة ما، لتستمرّ رحلة البحث عن المعنى من جديد، وفي كلّ بحث نصطدم تارة بالإنتاج وأخرى بالتأويل: الأول هو اختيار لتمثيل ما، أما الثاني فهو بحث مستمر حول هذا الاختيار. بمعنى آخر، تركّز هذه السيرورة الدلالية على بناء النواة الخاصة بالموضوع الذي يتم ربطه أو إيصاله دائما بالعلامة. إن الأمر يتعلق ببحث مستمر، وهو بحث يُفضي بنا إلى قضايا دلالية أكثر عمقا، وأكثر تطورا، وتكرار هذا البحث يولّد لنا عادات في التأويل.

تنطلق هذه السيرورة من عنصر لتصل إلى عنصر آخر، وكيفما كانت طبيعة الظاهرة المدروسة، فإن الانتقال من العنصر الأول إلى العنصر الثاني لا يمكن أن يتم عن طريق الصدفة، وإلاّ أصبحنا أمام سيرورة غير متماسكة. لذلك يجب التعامل مع هذا الانتقال بوصفه معطى توسّطيا بانيا ومتحكّما في كل المسيرات التأويلية التي تربط بين العنصر الأول والعنصر الثاني.

وتقتضي صياغة هذه السيرورة استحضار عناصرها وتمييز مختلف المراحل المشكّلة لها انطلاقا من تصنيف مقولي لتلك العناصر. كما أنها تشتغل، أيضا، بوصفها استعادة للمقولات الفينومينولوجية الإدراكية (نسبة إلى المقولات الفلسفية البورسية الأولى والثانية والثالثة) التي توضح نمط اشتغال الوجود وعلله الخاصّين بكلّ التجربة الإنسانية. فما يجربه الإنسان وما ينتجه من دلالات ينبغي أن يُتناول باعتباره حصيلة تفاعل دقيق بين ثلاثة عناصر توضّح إدراكه لذاته وللعالم الخارجي في آن واحد. وهذه العناصر هي التمثيل والموضوع والتأويل، وهي بمثابة آليات انسجام كبرى يمكن إرجاعها إلى مفهومين كبيرين هما: المحايثة والتظهير.

فالمحايثة هي ما هو معطى بشكل سابق على الفعل الإنساني وتمفصلاته، واستنادا إلى هذا المفهوم لا تهتم الدلالة بالشيء الذي يجليها ويظهرها، ولا دور لهذا الشيء في تداولها. وهذا معناه أن هناك أفقا مضمونيا (مادة مضمونية محايثة) يتحدد من خلال ثنائيات توجد خارج مدارات التحقق.

أما التظهير فهو الوجه المرئي والمتحقق المادي للنص. "إنه التجسيد التأويلي للأدلة الذهنية المتراكبة مع الأدلة الأجناسية. ومعنى هذا أن حركة ذهنية متعاكسة تسم الدليلين المحايث والإظهاري، فالدليل المحايث-بغض النظر عن المستوى الإنتاجي الذي ينتمي إليه-يحظر في الذهن مكثفا، ولذلك يتطلب، لكي يتحقق في شكل تواصلي ما، أن يتحدد. ولا يتحدد، إلا إذا تخلص من كثافته وعموميته، ولا يمكن أن يتخلص من كثافته وعموميته إلا بفضل تجسده في سياقاته الدينامية، أي بفضل انتشاره عبر عدة مؤولات تجسيدية إظهارية. أما الدليل الإظهاري فيتطلب تحيين العديد من الأدلة اللغوية بشكل مركب حتى يتسنى لها أن تشكل مؤولا ديناميا للدليل

المحايث"[٨].

إن التحول من النظام القيمي المحايث والمجرد إلى التحقق الخاص لا يمكن أن يتم إلاّ باعتماد سلسلة من القواعد والأنساق التي يتم بها تحيين القيم داخل سياق محدد. إن هذا التحول من العام والمجرد إلى المحقق هو تحول لا يتم عن طريق الصدفة، بل هو تحول محكوم باستراتيجية تنظر إلى الدلالة بوصفها سيرورة تداولية يتحكم فيها محفِلا الإنتاج والتلقي، «إن المعنى ليس محايثا للنصِ باعتباره إرسالية، بل إنه محايث لوضعية إبلاغية تشتمل، بالإضافة إلى باث ومتلقي، على مجموعة من الشروط (مجموعة مقاييس، منها النوع النصي وممارسة اجتماعية ما). ويمكن أن تكون هذه الشروط من طبيعة تداولية، ولكنها تداولية شاملة»[٩].

بذلك نكون أمام مقاربة تسلم بتعدد وتعاضد المستويات سواء كانت محايثة أم محققة. واستنادا إلى كفاية المتلقي وأهليته الموسوعية لا ينبغي النظر إلى النصوص على أنها عوالم تفترض وجود معنى كلي ونهائي يقتضي بحث المؤول عنه، بل إن الأمر يتعلق بجهة نظر معينة، وهي بمثابة فرضية مسبقة للقراءة قائمة على أسنن وتعاقدات مختلفة ومتعددة، تؤثر وتشتغل بوصفها شبكات للقراءة والتأويل.

إن هذه القراءة تنطلق من فرضية وجود مسيرات أو سيرورات لها صلة بالإمكانات التي تتآلف وتنسجم من خلالها وحدات المعنى في نسق محدد. فالمعنى بما هو تسنين وتكثيف لهذا التسنين وتصنيف وتعرّف ونمذجة، هو أداتنا الوحيدة في تنظيم التجربة الإنسانية وتحديد أشكال وطرق تمفصلها وتآلف وانسجام عناصرها.

وعلى هذا الأساس كان الحديث عن المحايثة والتظهير باعتبارهما فعلين يغطيان نمطين للوجود في حياة الدلالة وإظهارها عبر الوسيط السردي، ولقد أفاض الناقد عبد اللطيف محفوظ في تحديدها وفي كيفية تصريفها على نحو إجرائي داخل النص الروائي.

٢- آليات الانسجام الصغرى:

الآليات البلاغية والنحوية والتناصية:

إن بناء السيرورة التأويلية، أو التدلال، في ظل مقاربة الدكتور عبد اللطيف محفوظ لنصوص نجيب محفوظ الروائية (السكرية- السمان والخريف-ثرثرة فوق النيل-حضرة المحترم-ملحمة الحرافيش-عصر الحب-يوم قتل الزعيم...) سيكون خاضعا لنسق التحولات والسناريوهات التوقعية والجولات الاستدلالية التي تمليها مدارات النص النحوية والبلاغية والتناصية، وهي في عرف الناقد آليات انسجام صغرى تساهم في إظهار المعنى عبر مستويات التحليل، وقد اعتمدها على اعتبار ملاءمتها لشكل الإظهار الروائي، «وتقوم الآليات النحوية—بوصفها من بين آليات تجسيد الموضوعات الدينامية— بتمطيط الإظهار ولحم فقراته وتحديد سياقات المدارات المحايثة[١٠]. ومن بين هذه الآليات التي قد تكون للتحديد الضروري أو للتحديد الإضافي فقط، هناك الأحوال والنعوت والصفات المشبهة...[١١].

إن التحديد الضروري والتحديد الإضافي والتنظيم والانتقاء والحذف والتحجيم والتصنيف والتمطيط والاتساق والانسجام... والمماثلة (الانفعالية والوجودية) والمباينة (التعليق والسخرية) بوصفهما آليتين بلاغيتين هو ما يعيِّن ويشير إلى هذه الآليات ويعينه للحديث عن تماسك وانسجام خطابي، وهو ما يعني مثولنا أمام عملية تأويلية محكومة باستراتيجية. إنها تتعلق بما هو خطابي، أي بنحو لتوليد المعنى واستثماره في وقائع ملموسة دالة. هذه الآليات هي التي سيُنظر

٨ - عبد اللطيف، محفوظ. سيميائيات التظهير مرجع سابق، ص. ص ٢٨-٢٩.

٩- فرانسوا، راستيي. "المعنى بين الذاتية والموضوعية"، مجلة علامات، ترجمة: محمد الرضواني، مجلة علامات العدد: ١٣، السنة، ٢٠٠٠ ص:٦١.

١٠- عبد اللطيف، محفوظ. سيميائيات التظهير، مرجع سابق، ص. ٣١.

١١- المرجع نفسه. ص .٣١.

إليها بوصفها مجموعة من الإرغامات الخطابية المحددة للشروط التي يتم في إطارها أو بمقتضاها إنتاج المعنى وتداوله واستهلاكه، ويفضل إليزيو فيرون تسمية هذه الشروط "بشروط التعرف"[١٢].

إن الخاصيات التي تشتمل عليها الآثار المعنوية، عادة ما تظل خاصيات مفترضة، أي إنها تظل مخزونة في موسوعة القارئ الذي يعمد ببساطة إلى تحيينها وتجسيدها كلما اقتضى المسار النصي ذلك. فالقارئ من هذه الزاوية، إذن، لا يظهر ما هو متضمَّن أو مضمر إلاّ لما هو بحاجة إليه. وإذ يتصرّف على هذا النحو، فإنه يجلب ويعطي حظوة وامتيازا لمدلولات سياقية أو فرضيات قرائية على حساب أخرى. ولكن، وفي سبيل أن يحسم القارئ أمر اختيار المدلولات التي حظيت عنده بالامتياز مقابل تلك التي قام بإبعادها، فإنه لا يكفيه أن يقارن كل ما تمدّنا به الموسوعة. مما يستوجب معه تفعيل البنيات الخطابية مثل المدارات السياقية باعتبارها فرضية قرائية [١٣].

استنادا إلى هذا لا يمكن للنص أبدا أن يكون معزولا، فهو يستمد معناه من العلاقات المباشرة مع نصوص أخرى خارجة عنه (نص الثقافة ونص التاريخ) آليات تناصية، وهي تناصات أيقونية–النصية الإظهارية والتناصات المؤشرية الإظهارية (نسبة إلى الأيقونة والمؤشر)؛ «إن المقصود بالأيقونة النصية الإظهارية هو حضور نص فني إلى ذهن الكاتب، نتيجة ملاءمته لأحد سياقات الدليل السابق عليه إظهاريا. [١٤]

وانطلاقا من هذه الآليات التناصية سيكون النص حقلا منفتحا ومتعددا يساهم في تكاثر إنتاج العلامات، إذ سيكون تأليفا من العلامات مع مؤوّلاتها وموضوعاتها. فعندما يقرأ المرء العلامة من جهة علاقاتها وتوزيعاتها الثلاثية (الأيقونة والمؤشر والرمز)، فإن علاقاتها بالموضوع تشير إلى سمات النص الأساسية. وطبقا لبورس، فبوسع الأيقونة أن تدلّ بفضل طبيعتها الخاصة فقط؛ أما المؤشر فيتأثر، حقيقة، بالموضوع؛ والرمز هو إنجاز لقانون ما. وفي هذه الحالة، سوف يطابق النص ما يقع خارج ميدانه أعني ميدان الموضوع الذي يصاحبه. والنص بهذه الصفة التوليدية يعدّ نسقا مفتوحا من العلامات مع معانيها المتعددة. وتنشأ هذه التعددية انطلاقا من سلسلة الإحالات الدالّة والمحكومة بغايات تأويلية محددة، يكون فيها للذات المتلقية القدرة على تحيين هذه الإحالات باعتمادها قيود الانتقاء السياقي والملابسات المقامية المحيطة بفعل القراءة.

إن السياق والظروف المقامية شيء ضروري لكي يتسنى للمؤول (وهو في حالتنا هنا القارئ عبد اللطيف محفوظ في تأملاته لأعمال نجيب محفوظ) منح التعبير دلالته الكاملة والتامة، غير أن التعبير يشتمل على دلالات افتراضية تسمح لهذا المؤول بأن يتوقع سياقه. وفي هذا يعتمد هذا المؤول على قدرته الموسوعية ومجموع التجارب الضمنية، بلغة بورس، التي تستند إلى معطيات ثقافية مقبولة اجتماعيا وتاريخيا.

إن النص الروائي – انطلاقا من هذه الآليات التناصية – لا يمكن أن يكون سوى تحقق داخل نوع ما. ولتحيين أبسط مكوناته الدالة لا بد من الاستنجاد بمعارف موسوعية متنوعة ومتعددة. وإن كل تعدد إنما يعود ويوكل أمره إلى الذات التي تقوم بالتأويل، والتي تملك القدرة على تحيين دلالات هذا النص بناء على انتقاءات سياقية. هذه الانتقاءات تتشكل انطلاقا من فرضيات ومؤشرات تأويلية تعطي للقارئ/المؤول الحق في إعادة بناء قصدية النص من خلال إعادة بناء سياقاته الداخلية. والكشف عن هذه الأخيرة قمين بتحقيق قراءة منسجمة ومتنوعة ومتعددة للنص. إن هذه القراءة ذاتها مقيدة بالاختيارات والوضعيات

12– Eliseo (Veron): Sémiosis de l'idéologie et du pouvoir"; in Communications 28 ;1978; Page:8.

13– UMBERTO, ECO. LECTOR IN FABULA, Ou la coopération interprétative dans les textes narratifs, Traduit de l`italien par MYRIEM BOUZAHER, ED, Grasset & Fasquelle, 1985. , Page: 113.

١٤– عبد اللطيف، محفوظ. سيميائيات التظهير. مرجع سابق. ص. ٧١.

التي يفرضها النموذج التأويلي، وهو نموذج يعين منذ البداية الصيغ والأشكال التي تجعل القارئ قادرا على الإمساك بالعوالم الدلالية التي يثيرها النص، سواء أكانت هذه العوالم تنتمي إلى النص (المعرفة النصية)، أم خارجة عنه (المعرفة الخارج – نصية). هذا التنشيط أو العلاقة بين مستويات التدلال في بعديها المحايث والإظهاري أو بين التوليد والتأويل هو ما اصطلح أمبرتو إيكو على تسميته بالتعاضد التأويلي. وقوة هذا التعاضد ومردوديته يتحققان في القدرة على الربط بين ما ينتمي إلى النص كشيء خاص به، وبين ما هو خارج عنه؛ أي نص الثقافة الذي يحتويه.

ومن هذا المنظور، فالتأويل–من خلال مفهوم المدار–يساهم في تشييد سياقات متعددة، وكل سياق لا يمكنه أن يكون شيئا آخر سوى تفعيل وتجسيد عملي لفرضية المدار هذه. وإلى حين تحققها في سياق خاص تظل السميوزيس لامتناهية، «إنها من هذه الزاوية تغلق في كل لحظة ولا تغلق نهائيا. ذلك أن نسق الأنساق السميائية الذي يبدو، بشكل مثالي، ككون ثقافي مفصول عن الواقع، يقود في الحقيقة إلى التأثير في العالم وإلى تغييره. إلاّ أن كل فعل تغييري يتحول بدوره إلى علامة تعلن عن ميلاد سيرورة سميوزيسية جديدة»[١٥].

٣- المؤولات والتدلال:

تنطلق سيميائيات بورس–التي اعتمدها الناقد عبد اللطيف محفوظ خلفية لأبحاثه – من مبدأ أساس مفاده أن العلامة شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر». إن هذه المعرفة المضافة (بالمعنى البورسي للكلمة) تدل على أن الانتقال من مؤول إلى آخر يكسب العلامة تحديدات أكثر اتساعا سواء أكان ذلك على مستوى التقرير أم على مستوى الإيحاء. إن التأويل باعتبار موقعه داخل نسيج السميوزيس اللامتناهية، يقترب أكثر فأكثر من المؤول النهائي المنطقي. فالسيرورة التأويلية تنتهي، في مرحلة ما إلى معرفة خاصة بمضمون الماثول أرقى من تلك التي شكلت نقطة انطلاق هذه السيرورة»[١٦].

فالعلامة وفق هذا التصور لا تنتج دلالة تكتفي بذاتها، بل إنها تولّد سيرورة تدليلية أكثر تطورا انطلاقا من فعل التمثيل وأشكال الإحالة، والعلاقات التي تتم بين عناصر هذه السيرورة. هذه المعرفة المضافة تدلّ على أن الانتقال من عنصر داخل هذه السيرورة إلى آخر يعطي للسميوزيس أو السيرورة التدلالية بعدها التوليدي في إنتاج سلسلة لامتناهية من العلامات. فكل علامة تؤوّل أخرى ومن شأن أيّ فعل تأويلي أن يتحوّل بدوره إلى علامة ويولّد سيرورة سيميائية جديدة، وهو ما يجعلنا بصورة واضحة أمام مفهومي التوليد والتأويل.

إن مفهوم التأويل–حقيقة–هو ما يهمنا أكثر لأنه هو الذي يؤسس الفرضية القائلة: «إن المعنى هو نص مفترض والنص هو امتداد لآثار معنوية»[١٧]. وتعدّ هذه الفرضية أساسية، لأنها تفترض، وبصورة مسبقة، الدور الحقيقي الذي يُعهد للقارئ بوصفه المسؤول عن فعل التأويل، وبالتالي انخراطه في تحيين النص. لذا فإن الفرضية السالفة ليست جديدة، ففي سيميائيات بورس ما يؤكّد وجود هذه الفرضية بخاصة تصوّره المنسجم والمتكامل لمفهوم السميوزيس اللامتناهية أو التدلال وغنى نظرية المؤولات، لما لهذه الأخيرة من أهمية في عقد الصلة بمفاهيم متداولة كثيرا في الحقل التداولي، بخاصة المفاهيم المتعلّقة بمقامات وظروف التلفظ، وتلك التي لها علاقة بافتراضات الذات المؤولة واقتضاءاتها، والاشتغال الاستدلالي لتأويل النص (المؤولات الحملية والقضوية). هذا الأخير يقتضي التحيين من قبل الذات المؤولة. وهو بذلك يفسح المجال أمامها

15– UMBERTO, ECO. LECTOR IN FABULA, op.cit; Page:57.

16–UMBERTO, ECO. Les limites de L'interprétation, traduit de l'italien par; Myriem Bouzaher.; Grasset; 1990. Page:371.

17– UMBERTO, ECO. LECTOR IN FABULA, OP.Cit, Page: 32 .

لإمكانات تأويلية متعددة، إنه بتعبير إيكو، «منتوج يشكّل قدره التأويلي جزءا من آليته التوليدية»[18]. ولا شكّ أن توليد وتأويل نصّ ما، في حالة الناقد عبد الطيف محفوظ، يعني تشغيل استراتيجية سميوزيسية متعاضدة تراعي التأليف والتمفصل بين مختلف العناصر المشكّلة لها (الماثول والموضوع والمؤول).

ففي هذا المنظور، يصبح كل مؤول بوصفه هو الآخر علامة، بناء سيميائيا قابلا، بدوره، لتأويل آخر. وهذه السلسة اللامتناهية من التأويلات هي مجرد احتمال سميوزيسي لا يمكن أن يتحقّق إلاّ ضمن سياق محدّد أو من زاوية بعينها، «فالسميوزيس – بصورة مفترضة – لامتناهية، إلاّ أن أهدافنا المعرفية تقوم بتأطير وتنظيم وتكثيف هذه السلسة غير المحدّدة من الإمكانات. فمع السيرورة السميوزيسية ينصبّ اهتمامنا على معرفة ما هو أساس داخل كون خطابي محدد»[19]. هذا الكون الخطابي هو الذي يحدّ من حجم التأويل وامتداداته، إنه يشكّل فاصلا بين التأويل اللامتناهي والمتاهي (نسبة إلى المتاهة) الذي لا تحكمه ضفاف، والمسير التأويلي المحكوم بانتقاءات سياقية والذي له ضوابطه ومنطقه ونتائجه الدلالية، مما يعني أن السيرورة التأويلية متناهية من حيث الإجراء والتجسيد العملي.

هذا التصور للتأويل كما يشغل مفاهيمه الدكتور عبد اللطيف محفوظ في سيميائيات التظهير يقتضي أن يُدرك داخل إطار فلسفة بورس الظاهراتية المرتكزة على نظرية المقولات (الأولانية والثانيانية والثالثانية)، والتفكير المنطقي والرياضي؛ بخاصة منطق العلاقات، لأن الكشف عن الترابط وعن العلاقة بين الأشياء في بعدها الأول، وبين أشكالها المحققة في بعدها الثاني هو السبيل إلى تحديد بؤر التدليل وقضايا التأويل المرتبطة به. فالسيرورة التأويلية عنده مرتبطة في اشتغالها بمجموعة من العمليات الاستدلالية والقياسية المؤدّية إلى إنتاج الدلالة وتداولها. وبفضل هذه السيرورة التي تماثل في العمق، وبدرجة أكبر، الاستدلال الرياضي، نستطيع تشييد علاقات[20]* بين الأشياء قصد الوصول إلى استنتاجات تتعلّق بما يكون صادقا من العلامات في كل الحالات. والذي أعطى لمقاربته مشروعيتها هو وعيه بالتصنيفات الفرعية والمعقدة والمركبة للمؤولات وطريقة اشتغالها داخل النص الروائي عند نجيب محفوظ، فقد قسمها الناقد تبعا للتقسيم الذي أتى به بورس إلى: المؤول المباشر والمؤول الدينامي والمؤول النهائي، وكل نوع يتطابق مع مستوى دلالي معين. فالمؤول المباشر هو المؤول الممثل بكيفية مباشرة داخل العلامة. يظل هذا النوع مرتبطا بالمعطى المباشر داخل العلامة، وحدود تأويله هي حدود معطيات الموضوع المباشر. وتكمن وظيفة هذا المؤول في إعطاء نقطة الانطلاق للسيرورة الدلالية؛ أي إدخال الماثول (الممثل وفق ترجمة د محفوظ) داخل سيرورة السميوزيس. وما ينتجه من معنى يبقى في حدود التجربة المباشرة التي يتطلبها الإدراك المشترك. ولأنّ إدراك أيّ ظاهرة بصورة فعلية، يقتضي استحضار السيرورة التاريخية والقيم الثقافية التي انبثقت منها هذه الظاهرة وتحوّلت عبرها إلى ذاكرة للفعل الإنساني، فإن تجاوز هذا المستوى المباشر أمر طبيعي. هذا التجاوز يضعنا على عتبات مؤولات أكثر خصوبة، وأكثر تعقيدا، هذه المؤولات هي: المؤولات الحيوية أو الدينامية، وهي المؤولات التي تقدم كل المعلومات الضرورية لتأويل العلامات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار المؤول الدينامي، فإن فعل العلامة أو سيرورة السميوزيس ستتحول إلى سيرورة لامتناهية، الشيء الذي

18– Ibid, Page: 68/70.

19–UMBERTO, ECO. Les limites de L'interprétation, OP.Cit, Page:371.

٢٠♣– إن اعتماد العلاقة أثناء حديثنا عن الظواهر (أشياء، وأحداث...) يؤكّد بالأساس أن فهمها يستدعي صلات الارتباط الكائنة فيما بينها. ويتّصف مفهوم العلاقة بالضرورة والشمولية؛ إنه ضروري لأنّ التفكير في كل ما يحيط بنا يستلزم الوقوف على العلاقات التي تؤلّفه، وشامل لأنّ أيّة ظاهرة مهما تكن طبيعتها، هي بالضرورة ظاهرة علائقية.

يجعل من السيميائيات علما مهتما بكل المضامين والظواهر الثقافية وفي تحريرها من أية ميتافيزيقا للمرجع كما قال إيكو: «فمن أجل تحديد مؤول علامة ما، ينبغي تسمية هذا المؤول عبر علامة أخرى ستصبح، بدورها، مؤولا نستطيع تسميته عبر علامة أخرى، وهكذا دواليك. إن هذا يعطي ميلادا لسيرورة سميوزيسية لامتناهية، وهي سيرورة تعدّ، وبشكل مفارق، الضمانة الوحيدة لتأسيس نسق سيميائي قادر على فهم وإدراك نفسه بنفسه من خلال وسائله الخاصة لا غير. إن اللغة، إذن، نسق يوضح نفسه انطلاقا من أنساق تعاقدات متتالية تفسر بعضها بعضا»[٢١]. إن القوة التأويلية التي يتمتع بها المؤول الدينامي لا يمكن أن تتوقف من تلقاء نفسها. ولا يوجد داخل هذا المؤول ما يوحي بذلك. فإيقاف هذه القوة المدمِّرة وهذه الحركية لا يمكن أن يتم إلاّ بواسطة أنساق تدليلية سياقية تستدعي الانتقاء والحذف والتحجيم. وتلك هي مهمة المؤول النهائي.

إذا كان المؤول الدينامي، كما سلف، هو المسؤول عن عملية إنتاج الدلالة وإدخالها في سيرورة السميوزيس اللامتناهية، فإنه وبهذا الشكل، يوفر المعلومات أو الشروط الضرورية والكافية لعملية التأويل. إن سلسلة الإحالات لا يمكن أن تتوقف في حدود هذا المؤول. وإذا كانت دينامية العلامة لا تستوعب إلاّ باعتبارها انتقالا من علامة إلى أخرى، فإن هذه الدينامية في المؤول تجد نفسها وباستمرار محاطة، داخل سيرورة السميوزيس اللامتناهية بقوة مضادة تنزع إلى تثبيته (المؤول الدينامي) داخل نقطة ما والحدّ من حريته. وتتطابق هذه القوة مع فعل المؤول النهائي أو المؤول التداولي (ويسمى أيضا بالعادة).

فالحدّ من هذه الحرية يشير إلى وجود سياق خاص كفيل بتحديد تأويل نهائي للعلامة. فعملية التأويل هذه ليست عملية حرّة، بل إنها حرية مشروطة بالسياق الملموس، سواء أكان سياقا نفسيا أم اجتماعيا أم تاريخيا أم علميا؛ أي بقدر ما توهمنا عملية التأويل بأننا أحرار فيما نقول، فإننا في الوقت نفسه نجد أنفسنا مجبرين على تأويل وذكر ما يريد الشيء المؤوَّل قوله. بذلك نكون أمام انتقاء تأويلي، يحدد للتأويل حقوله ومصادره، ويفرض عليه قيودا سياقية وحواصر تأويلية تدرجه ضمن كون متناه، منتج لرقابة لها أبعادها الثقافية والتداولية، وهي رقابة تتحكم في مجموع الأنساق التأويلية الناتجة عن حركة دلالية ما.

إن هذه المؤولات بمراتبها ومستوياتها (المباشر والدينامي والنهائي) منظورا إليها من جهة نظر الذات المؤولة، هي مؤولات وجدانية وطاقية ومنطقية. وقد كان الهدف من هذا التقسيم، هو ضبط السياق والمدارات الإظهارية الذي تشير إليه العلامة داخل النص الروائي، أو المقاطع السردية التي استشهد بها المؤلف، بحيث يساعدنا كل مؤول على تسييج الطاقة التأويلية الدينامية ضمن سياقات تستطيع من خلالها الذات المؤولة الاستقرار على دلالة بعينها. فالمؤول المنطقي مثلا يقتضي تأويلا عقليا وذهنيا "فإذا كانت العلامة من طبيعة عقلية، فإن مؤولها سيكون بالضرورة مؤولا منطقيا"[٢٢]. وهذا ما حرص على تبيانه الناقد عبد اللطيف محفوظ وهو يباشر تطبيقاته على نصوص نجيب محفوظ ليكون التأويل عنده بذلك عملية حسابية وليس ترفا فكريا أو ضربا من الحدس والتخمين السيكولوجيين. يضاف لهذه المؤولات أنواع أخرى عمد الكاتب على إظهارها وفق ما ينسجم مع سياقات النص، وهي: المؤولات السننية والمؤولات التحيينية التعرفية والمؤولات التجسيدية الإظهارية... ثم المؤولات الحملية والمؤولات القضوية... ولفهم ما تدلّ عليه نسقية هذه المؤولات حسب الكاتب فقد أفاض في شرح

21- UMBERTO, ECO. La Structure Absente ED, Mercure de France, Paris , 1972. Page: 66.

22-PEIRCE, Charles Sanders. Ecrits sur le signe, rassembles, traduits et commentes par Gérard Deledalle, ED. Seuil, Collection, L'ordre Philosophique, Paris, 1978., Page: 130.

الآليات الأساسية للسيرورة المعرفية والمنطقية ذات الطبيعة الاستدلالية، هذه الآليات هي: الاستنباط والاستقراء والافتراض. هذه العمليات الاستدلالية، تسمح لنا بإدراك طبيعة العلاقة التي تصل السيرورة السيميائية التأويلية بالسيرورة المنطقية، والتي كان بورس دائما حريصا على بنائها، بخاصة وأن السميائيات بالنسبة له ليست سوى اسم آخر للمنطق. لذلك فغائية السيرورة السيميائية (من خلال المؤولات) هي تأسيس معنى؛ أي إظهاره وإسناد موضوع ما إلى الماثول.

في ظل هذا المقترب النظري نكون أمام سيرورة سيميائية وتداولية ومنطقية بخاصة في تركيزها على مفهوم السياق والاستعمال وتضمينها لفسلفة التمثيل والفعل. فكلّ ملفوظ داخل النص الروائي المؤول يتضمّن إشارات تداولية (أسماء أعلام وضمائر وأسماء إشارة وأسماء موصولة وظروف زمان ومكان...) يتعلق الأمر بانتقاءات أو إرغامات تأويلية تسمح باستدعاء مفهوم السياق أو المقام التخاطبي أثناء الحديث عن ظاهرة ما سواء تعلّق الأمر بسياق إنتاج هذه الظاهرة أم بسياق تلقيها. فليس هناك سيميائيات أو تأويل خارج الفعل التداولي، ولا يمكن تصور سيميائيات للفعل خارج سياق ما. وهذا ما يشكّل إحدى المبادئ الأولية والأساسية التي استند إليها الناقد عبداللطيف محفوظ في تسييج الفعل التأويلي وحمايته من أيّ انزلاقات دلالية لا كابح لها.

إن هذه الاحتمالات–وهي احتمالات سميوزيسية تدلالية – تدلّ على أن الانتقال داخل السميوزيس من عنصر لآخر يكسب العلامة تحديدات أكثر اتساعا وعمقا، سواء تعلّق الأمر بالمعطيات التقريرية الحرفية بوصفها النشاط الأول المرتبط بفعل إنتاج الدلالة، أو المعطيات الإيحائية بوصفها نشاطا ثانيا يقذف بالعلامة نحو عالم التأويل، فالعلامة في ظل هذا التصور شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر.

فما نحصل عليه في نهاية المسير التأويلي هو حدّ بدئي لمعرفة عميقة تطرحها العلامة. فكلّ مؤوِّل جديد يشرح الموضوع السابق انطلاقا من معارف وتصورات جديدة، وهي تصورات تجعل من السميوزيس بؤرة للتوالد الدلالي اللامتناهي، هذا اللاتناهي لا يفصل العلامة عن أصلها، بل يحافظ على هويتها وتماسكها.

إن سيميائيات التظهير هذه، لم تظل حبيسة المنطلقات الفلسفية التي استندا إليها الكاتب في تشييد صرحها، بل حاولت التفاعل معها وتبني لنفسها نموذجا مستقلا وجعلت من السيميائيات علما يسكن اللغة العربية، ويتبدى هذا على نحو خاص أثناء الممارسة باعتبارها التطبيق المخصوص الذي يُمدّ النظرية بعناصر محلية وتلوينات ثقافية تميزها وتغنيها. فالسيرورة التأويلية إنتاج، والإنتاج يقتضي الخروج من التعيين إلى التأويل، باعتبار هذا الأخير سلسلة من الإحالات البانية لأنساق تدليلية سياقية إن لم تكن مشروعة، فهي على الأقل قابلة للإقرار بها شرعا دلاليا وجماليا.

منهجية الكتاب ورهانه النقدي والبيداغوجي

حاول الكاتب عبد اللطيف محفوظ من خلال سيميائيات التظهير التأصيل لرؤية نقدية جديدة تنظيرا وممارسة (تطبيقات على أعمال نحيب محفوظ الروائية) والتأصيل، هنا، هو حالة النضج التي وصل إليها الفعل النقدي؛ إذ ساهم على نحو كبير في تجديد الوعي النقدي العربي، من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى وإشكالاته، في غنجه ودلاله. كما عمل على تهذيب القراءة النقدية، وحاول انتشالها من الرؤية الانطباعية التي ظلت أسيرة زخم هائل من المفاهيم النظرية المستوردة. تلك، في اعتقادنا، هي حالة بعض التصورات النقدية العربية اليوم التي حاصرت نفسها بالعديد من المفاهيم النظرية المجرّدة من أيّ غطاء فلسفي؛ حيث لم تقم سوى بنقلها واستيرادها دون العمل على تطويرها وتوطينها والتفاعل معها، الأمر الذي جعل هذا النقد لم يجدد آلياته ويغني منطلقاته بأصول نظرية إضافية تعطي للمعرفة النقدية

والنظرية على حدّ سواء نقلة نوعية من شأنها إضاءة العمل الأدبي. لكن على النقد الذي يريد أن يضيء جوانب العمل الأدبي، والذي يسعى لطرح تأويل مقنع له، أن يعي الأصول والأسس الفلسفية التي تنهض عليها ممارساته، حتى يُكسب هذه الممارسات قدرا من التماسك والإقناع. وبعيدا عن هذه الأصول لا يمكن الحديث عن بناء تصورات نظرية وعملية مهما كان شكلها.

وقد كان الكاتب، على مدار كتابه، على وعي تام بأصوله الفلسفية كما كان على وعي اجتهادي طريف بمحاولته تقليص المسافة بين مفاهيم ومصطلحات مستمدة من سياقات ثقافية مغايرة للثقافة العربية، وبين معطيات النصوص الأدبية بحمولتها اللغوية والثقافية نقلا وترجمة وتعريبا وهو ما جعل مشروعه يلقى اهتماما ملحوظا ومتزايدا من لدن باحثين داخل الوطن وخارجه. ولا نغالي، إذا قلنا إنه أطروحة مؤسسة لهندسة بيداغوجية عربية في تحليل الخطاب وتأويله، ما يجعل الاستفادة منه ديداكتيكيا لتدريس النصوص الروائية أمرا ممكنا.

خاتمة:

إن التأويل في ظل سيميائيات التظهير يؤكد حقيقة واحدة مفادها أن النشاط الإنساني قادر على إنتاج وتداول سلسلة من القواعد والضرورات التي تسمح بالتواصل وخلق حوار بين الذوات الإنسانية. وهذا الإنتاج يتم وفق وجود مناطق متعددة تعكس ثراء التجربة الإنسانية، وتنوع هذه المناطق هو الذي يفسر تعدد التأويلات وغناها. بمعنى آخر، إن السلوك الإنساني منظورا إليه في أبعاده وتجلياته المباشرة لا يمكن أن يحدد أو ينتج أي شيء، ولا يمكن أن يدلّ من تلقاء ذاته. إنه كذلك عندما تحتضنه الثقافة وتثريه بزخم هائل من الإيحاءات والقيم المضافة. حينها فقط يمكن الحديث عن سلوك سيميائي أو سلوك تأويلي، أي عن فعل يُستوعب داخل عوالم رمزية.

إن كل المعاني المرتبطة بهذا السلوك وهذا الفعل، لا يمكنها أن تكون أحادية ومحدّدة ومكتفية بذاتها، بل إنها معان متعددة ومختلفة، وأحيانا غامضة. ويتمّ إجلاء هذا الغموض وخرق هذا المتّصل انطلاقا من تمفصلات الدلالة بوصف هذه الأخيرة سيرورة لإنتاج المعنى، تعمل على تحويله من صيغته العديمة الشكل، إلى أشكال متحقّقة تُدرك ضمن وحدات سياقية أو مدارات إظهارية متنوعة ومتعددة. وعلى هذا الأساس فإن الكشف عن العلاقات القائمة بين المعنى، بوصفه كتلة مضمونية متصلة وغامضة لا يحيل على أيّ شيء آخر سوى ذاته، وبين الدلالة بوصفها شكلا ورصدا وتقطيعا لكل أشكال وصيغ تحقق هذا المعنى وتجسيده في واقعة ما، هو السبيل الوحيد الذي يمكننا من خلاله الإمساك ببؤر التدليل ومداراته ومسالكه وكل صيغ التأويل التي لها صلة بهذا التدليل والتي تسعى لإظهاره.

في الختام، نقول إن سيميائيات التظهير تبحث عن المعنى في نصوص نجيب محفوظ مدركة أنه ليس موحّدا ولا متجانسا، ولا هو طلاء "كالزبدة فوق قطعة الخبز"[٢٣]، إنها تكشف وتعرّي وتضيء عالَم حياتنا المعطى وتكشف ما كان فيه متخفيا، نعني معناه المتحجّب وبنيته المخصوصة ومأساته الداخلية. والناقد، في إطار هذه السيميائيات، هو الذي يتصيّد المنكسر واللامتصل والمتقطع، أو هو الذي يزعج المتصل بشرخه كما لعبة القوة والحقيقة في علاقات الجماعات الإنسانية المتصارعة وهو يدعونا إلى البحث وكأننا وَجدنا ومازال علينا أن نجد لكن وَجدنا وكأنه علينا أن نبحث دائما ونحقق ذواتنا لانهائيا[٢٤].

23- Maurice- Merleau Ponty, Le visible et l'invisible Gallimard, Paris éd 1964, p203 ,

24- Maurice Blondel, L'être et les êtres, PUF, Paris 1963, p.12.

قائمة المراجع:

بالعربية:

عبداللطيف، محفوظ. المعنى وفرضيات الإنتاج: مقاربة سيميائية في روايات نجيب محفوظ، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر، ٢٠٠٨.

عبداللطيف، محفوظ. آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصور سيميائي، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر، ٢٠٠٨.

عبداللطيف، محفوظ. سيميائيات التظهير الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر، ٢٠٠٩.

فرانسوا، راستيي. "المعنى بين الذاتية والموضوعية"، مجلة علامات، ترجمة: محمد الرضواني، مجلة علامات العدد: ١٣، السنة، ٢٠٠٠.

بالفرنسية:

Eliseo,Veron. “Sémiosis de l’idéologie et du pouvoir”; in Communications 28; 1978.

Greimas, A.J. Du Sens; ed. Seuil; Paris 1970.

Greimas, avec la collaboration de F. Rastier: le jeu des contraintes sémiotique in du sens.

Maurice, Blondel. L’être et les êtres, PUF, Paris, 1963.

Maurice, Merleau Ponty. Le visible et l’invisible Gallimard, Paris, éd, 196 4.

PEIRCE, Charles Sanders. Ecrits sur le signe, rassembles, traduits et commentes par Gérard Deledalle, ED. Seuil, Collection, L’ordre Philosophique, Paris, 1978.

UMBERTO, ECO. La Structure Absente ED, Mercure de France , Paris , 1972.

UMBERTO, ECO. LECTOR IN FABULA, Ou la coopération interprétative dans les textes narratifs, Traduit de l`italien par MYRIEM BOUZAHER, ED, Grasset & Fasquelle, 1985.

UMBERTO, ECO. Les limites de L’interprétation, traduit de l’italien par; Myriem Bouzaher.; Grasset; 1990.